

فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلاق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعال بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيها، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب السابقة، فهو المزي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعال ﴿وأنزل التوراة﴾ أي: على موسى ﴿والإنجيل﴾ على عيسى ﴿من قبل﴾ إنزال القرآن ﴿هدى للناس﴾ الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي: الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جليلة ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلماذا قال ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي: بعد ما بينها ووضحها وأزاح العليل ﴿لهم عذاب شديد﴾ لا يُقدَّر قدره ولا يدرك وصفه ﴿والله عزيز﴾ أي: قوي لا يعجزه شيء، ﴿ذو انتقام﴾ ممن عصاه ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، ولها جليلة وحفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا يتألف علمهم، وهو تعال يدبرها بألطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فلماذا قال

ربنا وملكنا وهما الذي لم نزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فعمك دائرة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرتنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبيذوا أمرك، فانصرتنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتخذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصلّى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بألوهيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام ﴿القيوم﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره



أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذا قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغسوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه معفو عنه، وكذلك لا يخفى من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفسه أو ماله فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تحب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ أي: تكاليف مشقة ﴿كما حملت على الذين من قبلنا﴾ وقد فعل تعال فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشورور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿أنت مولانا﴾ أي:

والكيفية مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيةها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيةها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيةها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكلمون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف **«الراسخون»** على **«الله»** فيكون الله قد أخبر أن تفسير التشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون **«كل من المحكم والتشابه من عند ربنا»** وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض^(٢)، وفيه تبييه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع التشابه قال **«وما يذكر»** أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا **«أولوا الألباب»** أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالخاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد التشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين **«فأما الذين في قلوبهم زيغ»** أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد **«فيتبعون ما تشابه منه»** أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى التشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على التشابه **«ابتغاء الفتنة»** لمن يدعونهم لقولهم، فإن التشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله **«وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله»** للمفسرين في الوقوف على **«الله»** من قوله **«وما يعلم تأويله إلا الله»** قولان، جهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها **«والراسخون في العلم»** وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على **«إلا الله»** لأن التشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيةها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله **«الرحمن على العرش [استوى]»**^(١) فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم،

«هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء» من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقيح، وذكر وأنى **«لا إله إلا هو العزيز الحكيم»** تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

٧- ٩ **«هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أمانا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب»** ربنا لا نزع قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب **«ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد»** القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى **«كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»** فهو مشتمل على غاية الإتيان والإحكام والعدل والإحسان **«ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»** وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقتها لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله **«منه آيات محكمات»** أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال **«هن أم الكتاب»** أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، **«و»** منه آيات **«آخر متشابهات»** أي:

(١) سقطت كلمة استوى من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفيه تبييه على الأصل الكبير وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يتبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا.

والتصاري، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار النوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فيس المسهاد مهادهم، وبس الجزاء جزأهم، ﴿قد كان لكم آية﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿في فتنتين التقتا﴾ وهذا يوم بدر ﴿فتنة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وأخرى كافرة﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورفاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلماذا قال ﴿يرونهم مثلهم رأي: العين﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله ﴿رأي العين﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزموهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذلك إلا لأن الله ناصر من نصره، وحاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبذلة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والمعد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفائته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿١٤ - ١٧﴾ ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والححر ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ قل أولئك من بختيار من ذلكم للذين اتقوا

بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ ﴿قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فتقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ يخبر تعالى أن الكفار به ويرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿ويدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال وأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظلماً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فبئنا على هدايتك وعافنا مما^(١) ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: عظمة توفقتنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئاتها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، البين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ لمتشابهه إلى محكمه، بقوله ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية عما ابتلي به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمة المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

﴿١٠ - ١٣﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار﴾ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا

(١) في الأصل: ممن، ولعل الثواب ما أثبت.



﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادته خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إغنامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم

عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمننا فأغفر لنا ذنوبنا وعذاب النار﴾ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴿يخبر تعالى أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالى ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلق بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهن عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يباليون على أي: وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زاداً لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحاناً لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقاً يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ فجعلوها معبراً إلى الدار الآخرة ومتجراً يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زاداً إلى ربهم. وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغتربين بها وتزهيد لأهل العقول النيرة بها، وتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلك المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع

الشمار، والأنهار الجارية على حسب مرادهم والأزواج المطهرة من كل قدر ودنس وعيب ظاهر وباطن، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم، مع الرضوان من الله الذي هو أكبر نعيم، فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الحقيرة، ثم اختر لنفسك أحسنهما واعرض على قلبك المفاضلة بينهما ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي: عالم بما فيهم من الأوصاف الحسنة والأوصاف القبيحة، وما هو اللائق بأحوالهم، يوفق من شاء منهم ويخذل من شاء. فالجنة التي ذكر الله وصفها ونعمتها بأكمل نعت وصف أيضاً المستحقين لها وهم الذين اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وكان من دعائهم أن قالوا:

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿ربنا إننا آمننا فأغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقيم شر آثارها وهو عذاب النار، ثم فصل أوصاف التقوى. فقال ﴿الصابرين﴾ أنفسهم على ما يحبه الله من طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ﴿والصادقين﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم ﴿والمنفقين﴾ مما رزقهم الله بأنواع النفقات على المحاويع من الأتارب وغيرهم ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ لما بين صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم، حالاً ولا مقاماً، بل يرون أنفسهم مذنبين مقصرين فيستغفرون ربهم، ويتوقعون أوقات الإجابة وهي السحر، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم. فتضمنت هذه الآيات حالة الناس في الدنيا وأنها متاع ينقضي، ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم وفاضل بينهما، وفضل الآخرة على الدنيا تنبيهاً على أنه يجب إشارها والعمل لها، ووصف أهل الجنة وهم المتقون، ثم فصل خصال التقوى، فبهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟



من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع ويتقاد، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله هو قولهم ﴿لَنْ نَمْسَنَ النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم منتهم وغرهم أن مالهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مالهم شر مال، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلماذا قال تعالى ﴿كَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمُ لَيُومٍ لَا يَرِيبُ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم ووخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبورها لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَعَزُّزُ مَن تَشَاءُ وَتَذَلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ

ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتزويرهم، وتوقيهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بصد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنایات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، فبحمهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمْسَنَ النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * كَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمُ لَيُومٍ لَا يَرِيبُ فِيهِ وَوَفِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * نَجِيرُ تَعَالَىٰ عَنِ حَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ نَعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُتَابِهِ، فَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَسْرَعَهُمْ انْتِقَاداً لِأَحْكَامِهِ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى حَكْمِ الْكِتَابِ تَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ يَعْرِضُونَ، تَوَلَّوْا بِأَبْدَانِهِمْ، وَأَعْرَضُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَهَذَا غَايَةُ الذَّمِّ، وَفِي ضَمْنِهَا التَّحْذِيرُ لَنَا أَنْ نَفْعَلَ كَفَعْلِهِمْ، فَيُصِيبَنَا

الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلماذا قال تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للعقوبات الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام، عليه أن يقول لهم: قد أسلمت وجهي لله ومن اتبعني أي: أنا ومن اتبعني قد أقرنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لرنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا بطلانه، ففي هذا تأييس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من شبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيدهم بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيع ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلتها الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانفض كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلماذا قال ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ النَّصَارَىٰ وَالْيَهُودِ وَالْأُمِّيِّينَ * مَثَرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ * أَسْلَمْتُمْ فَإِنِ اسْلَمُوا * أَي: بمثل ما أمنتكم به * فَقَدْ اهْتَدَوْا * كَمَا اهْتَدَيْتُمْ وَصَارُوا إِخْوَانَكُمْ، لَهُمْ مَا لَكُمْ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ * وَإِن تَوَلَّوْا * عَنِ الْإِسْلَامِ وَرَضُوا بِالْأَدْيَانِ الَّتِي تَخَالَفَهُ * فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ * فَقَدْ وَجِبَ أَجْرُكَ عَلَى رَبِّكَ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا إِلَّا مَجَازَتُهُم بِالْعِقَابِ عَلَى جَرْمِهِمْ، فَلِهَذَا قَالَ ﴿وَاللَّهُ بِصَبْرِ الْعِبَادِ﴾

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقِّ

أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مديرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقته تعالى الأضداد، والصد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحتسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

﴿٢٨ - ٣٠﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تنقوا منهم نفاقاً ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير ﴿يوم تجرد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ . وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن موالاته الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاته الكافرين يأمر بموالاته الله وموالاته أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ فمن وإلى الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويفتنوا أوليائه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصدقتهم، والميل إليهم

واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرها عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ الآية وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ فأخبر أن اتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وتعز من تشاء﴾ بطاعتك ﴿وتذل من تشاء﴾ بمعصيتك ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتكم وقدرتك ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضيء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا



الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يقول الله لنبيه ﷺ ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفا الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: ﴿توتق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتية أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب مستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج»: وأما قوله: ﴿إلا أن تنقوا منهم نفاقاً﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والنفاق ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في «الصحیح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً أبلغ، فالؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غاية أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبحه الله إلا لمن أكره الخ.»

يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص .

﴿٣٢﴾ ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مريد ﴿كتب عليه أنه من تولاه فانه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير﴾ فلماذا قال: ﴿فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكأن في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

﴿٣٣ - ٣٧﴾ ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعنها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربهما بقبول حسن وأنبئها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم

الله﴾ ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض﴾ ﴿ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتنا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ فوالله لترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وأجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وأجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا ورحمة لثلاث يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترهيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال ﴿ومحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ فنسأله أن يمن علينا بالخذل منه على الدوام، حتى لا نعمل ما يسخطه ويبغضه.

﴿٣١﴾ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾ أي: ادعيتهم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاه، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول

والركون إليه، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إلا أن تنقوا منهم نقاة﴾^(١) أي: تحافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهارها به بمحصل التقية. ثم قال تعالى: ﴿ومحذركم الله نفسه﴾ أي: فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿وإلى الله المصير﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصى أعمالهم ويحاسبهم عليها ويمجازيهم، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السماء والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه عملاً لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور وبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله، وفي ضمن أخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي توفي به النفوس بأعمالها فلماذا قال ﴿يوم تحمد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وما عملت من سوء تود لو أن بيننا وبينه أمداً بعيداً﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدّة حزنها، فيحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يجزن عليها أشد الحزن، ولتتركها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿يا حسرتا على ما فرطت في جنب

﴿فجعلها ربهما﴾ يعني جعلها ربهما وهما يوسف وحسين ﴿أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان﴾ وأبنيها بناهما ﴿أي: نبتت نباتاً حسناً في بدنها وخلقها وأخلاقها، لأن الله تعالى قيض لها زكريا عليه السلام﴾ ﴿وكانت له إياه، وهذا من رفقها ليربيها على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربهما وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربهما، ولزمت محرابها أي: مصلحتها فكانت ﴿كلما دخل عليها رزقها﴾ ﴿بالحمد لله ولا عفاها﴾ ﴿رزقاً﴾ أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا ﴿أني لله هذا فالله هو ربها﴾ ﴿فضلها وإحساناً﴾ ﴿إن الله رزقنا من يشاء﴾ ﴿بالحمد لله﴾ ﴿أي: من غير حسابان من العبد ولا كسب، قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافاً لمن نفى ذلك، فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاهم بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلماذا قال تعالى:

﴿٣٨﴾ ﴿٤١﴾ ﴿هناك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسباً﴾ ﴿وربنا من الصالحين﴾ ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمياً واذكر ربك كثيراً﴾ ﴿وسبح بحمدي﴾ ﴿والإحبار﴾ ﴿أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: ظاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكتمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له

مستقيم﴾ ﴿والله سميع عليهم﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصة علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحيهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزرى ﴿٢﴾ أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكاهم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ ﴿أي: والدة مريم لما حملت﴾ ﴿رب إنى نذرتك لله إنى بطنتي محرراً﴾ ﴿أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك﴾ ﴿فقبل مني﴾ هذا العمل المبارك ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فلما وضعتها قالت﴾ ﴿رب إنى وضعتها أنثى﴾ كأنها تشرفت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقِعاً، ففي كلامها [نوع] ﴿٣﴾ عذر من ربهما، فقال الله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ ﴿إني سميتها مريم﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وإني عهدتها بك﴾ ﴿وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيدهم الله من الشيطان الرجيم

والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرمتا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيقات، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلماذا قال تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿ومن آباؤهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط

(٣) الكلمة غير واضحة في الأصل ويبدو - والله أعلم - أنها كما أثبت.

(١) في الأصل: ومنمن.
(٢) في الأصل: نزدي.

هَذَا كَمَا وَصَّكَ رَبُّكَ رَبُّ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٤٥﴾ فَأَنذَرَهُ لِلتَّبَعِ وَهُوَ قَائِمٌ
يَصِلُ فِي الْحَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَيْهِ مُصَدِّقًا لِكَلِمَاتِهِمْ
اللَّهُ وَسَيَدًّا وَأَصْحَابًا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ
أَنْ يَكُونَ لِي عِلْمٌ وَدَقِيقَتِي الْعَكْبَرُ وَأَمْرًا يُعَاقِرُ قَالَ
كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي
إِنَّكَ قَالُوكَ إِنَّكَ لَأَكْبَرُ النَّاسِ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ أُولَىٰ ذِكْرًا وَذِكْرًا
رَبِّكَ كَتَبْنَا وَصَّحَّحْنَا وَنَسَخْنَا الْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ قَالَتْ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ
عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ بَشَّرْنَاهُنَّ بِرَبِّكِ وَأُنشِئْنَاهُنَّ
وَأَكْرَمْنَاهُنَّ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ تَلْمِزُهُمْ إِذْ نَفَخْتَ فِي عَقْلِهِمْ مِنْهُمْ تَخَفُّلٌ
مَرْمِمْ وَمَا كُنْتَ تَلْمِزُهُمْ إِذْ نَفَخْتَ فِي عَقْلِهِمُ اللَّهُ لَا يُلَاقِيكَ
بِحُكْمٍ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ الْغَيْبَ مِنْ عَمَلِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِئْتِمَانِكُمْ فَمَنْ لَبَّىٰ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٥١﴾

﴿٤٥ - ٥٨﴾ ﴿٥٨﴾ إذ قالت الملائكة يا

مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمها المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهدي وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والنبوة والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئتمكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصداقاً لما بين يدي من النبوة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتمكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إني ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم

الراكمين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون * ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ أي: اختارك ﴿وطهرك﴾ من الآفات المنقصة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلهذا قالت لها الملائكة: ﴿يا مريم اقتني لربك﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿واسجدي واركعي مع الراكمين﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم، ما أمرت به شكراً لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي قبضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ أي: عندهم ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقتروا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لتركيا نبيهم وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد هذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنتك رسول الله حقاً، فوجب عليهم الانقياد لك وامتنثال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآيات.

دعاه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أن الله يبشرك بيحيى مصداقاً بكلمة من الله﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وسيداً﴾ أي: يحصل له من الصفات الحميلة ما يكون به سيداً يرجع إليه في الأمور ﴿وحضوراً﴾ أي: ممنوعاً من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالاً بخدمة ربه وطاعته ﴿ونبيياً من الصالحين﴾ فأى: بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبياً من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأني عاقراً﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتماعاً، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجد من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجلاً لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة على وجود الولد قال ﴿آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ أي: ينحس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجد بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي: أول النهار وآخره.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿٤٤﴾ إذ قالت الملائكة يا

مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع

المراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له كمالاً آخر وفضلاً زائداً على ما أعطاه الله من الفضائل، فقال ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ فأرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً ولهذا قال ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين طيراً﴾ أي: أصوره على شكل الطير ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ أي: طيراً له روح تطير بإذن الله ﴿وأبرئ الأكمه﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿والأبرص﴾ بإذن الله ﴿وأحيي الموتى بإذن الله وأنشئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ وأي: آية أعظم من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تحالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصاً أعظم الدعاوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب المسنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبداً، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه

التكليم المعتاد، بل المراد بكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربهم، وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به ﴿ومن الصالحين﴾ أي: يسن عليه بالصلاح، من من عليه، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر﴾ والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى: ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراده: كن فيكون، فمن يتيقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أعرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال ﴿ويعلمه الكتاب﴾، يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم الفأظه ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ويعلمه الكتاب﴾ أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾

وَيَكْرَهُ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
لَهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فَإِذَا هُوَ آتٍ قَوْلًا لَكُنْ فَيَكُونُ
﴿١١﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّانُخِيلَ
﴿١٢﴾ وَرَسُولًا إِنَّا أَنزَلْنَاهُ رُوحًا مِنَّا عَلَى مَرْيَمَ بِإِذْنِ رَبِّكَ
لَتُنْفِخَنَّ فِيهَا مِن نَّفْحِنَا فَكَرِهَتْ فَأَضَعَهَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ
فَنُفِثْنَا بِهَا رُوحَ رَبِّكَ فَانْحَثْنَا إِلَى نُفُوسِ النَّاسِ فَرَأَوْهَا
فانْحَثْنَا لَهَا ذُرِّيَّتًا مُّبَارَكَةً وَإِنَّهَا لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣﴾
فِي يَوْمِئِذٍ نُّزِّلَ مِنْ رَبِّكَ آيَاتُ الْتَوْرَةِ كُنُوزًا مُمَيَّنَّةً
﴿١٤﴾ وَمَصِّفًا قَالِيبًا مِّنَ التَّوْرَةِ لِأَجْلِ لِكُمْ
بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنِّبْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَبَكُّرَ
فَاتَّخَذُوا اللَّهَ وَطِيعُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكَ وَذَكَرُوا عَمَلَهُمْ
هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمَةٍ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَحْسَسَ بِهِنَّ
الْعَذَابَ قَالَ مَن نَّصُرُنِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ نَصُرُ اللَّهَ أَنشَأَ اللَّهُ نَسَبًا بَالِدًا وَأَشْهَدَ بَأَنَّهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٧﴾

فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم والله لا يحب الظالمين * ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانياً نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ أي: له الوجهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه السلام من سادات المقربين ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ وهذا غير

عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ **﴿لم إلي مرجعكم﴾** أي: مصير الخلائق كلها **﴿لأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾** كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال **﴿لأما الذين كفروا﴾** أي: بالله وآياته ورسوله **﴿لأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾** أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار **﴿وما لهم من ناصرين﴾** ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شعفاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، **﴿وأما الذين آمنوا﴾** بالله وملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به **﴿وعملوا الصالحات﴾** القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين **﴿فولهم أجورهم﴾** دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه **﴿والله لا يحب الظالمين﴾** بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه **﴿ذلك نلتوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم﴾** وهذا منة عظيمة على رسوله

الأنصار **﴿نحن الأنصار الله﴾** أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: **﴿أما بالله﴾** **﴿لنا كتبنا مع الشاهدين﴾** أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه أمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلماذا قال تعالى هنا **﴿ومكروا﴾** أي: الكفار بإزادة قتل نبي الله وإطفاء نوره **﴿ومكروا الله﴾** بهم جزاء لهم على مكروهم **﴿والله يحور الماكرين﴾** رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين **﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورائعك إلي وسطهرتك من الذين كفروا﴾** فرجع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا باللائم العظيم بنتهم أنه رسول الله، قال الله **﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾** وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى **﴿وإذ كفتت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾** حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى **﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾** ثم قال تعالى: **﴿وجاعل الذين يهودك فوق الدين كفروا إلى يوم القيامة﴾** وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزلوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع

يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال **﴿ولا حول لكم بعض الذي حرم عليكم﴾** فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متصفاً لها ومقرراً **﴿وجعلناكم بأية من ربكم﴾** تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله **﴿لأنقوا الله﴾** بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة لله **﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾** استدلت بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مدبر مخلوق، كما قال **﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾** وقال تعالى: **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾** إلى قوله **﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾** وقوله **﴿هذا﴾** أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله **﴿صراط مستقيم﴾** موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، **﴿للما أحسن عيسى منهم الكفر﴾** أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سبحة مبین، وهو ما يقتله وسعوا في ذلك **﴿قال من أنصاري﴾** إلى الله **﴿من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله﴾** **﴿قال الجواريون﴾** وهم

محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

﴿٥٩٩ - ٦٠١﴾ **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب لم قال له كن ليكون﴾ الحق من ربك فلا تكن من المصترين﴾** يخبر تعالى محتجاً على النصراني الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحداً لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لأدم ما زعمه النصراني في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البتوة والإلهية في المسيح، فادعائها في آدم من باب أولى وأحرى، فلماذا قال تعالى **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب لم قال له كن ليكون﴾** الحق من ربك من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليك ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام **﴿فلا تكن من المصترين﴾** أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما

بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى **﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾** وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلتها ويدعو إليه.

﴿٦١١ - ٦١٣﴾ **﴿لمن حاجك له من بعد ما جاءك من العلم لقل تعلموا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفوسك لم نبهل لنجعل لعدو الله على الكافرين﴾** إن هذا هو **﴿قصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾** **﴿إن تولوا فإن الله عليهم بالمشدين﴾** أي: **﴿لمن﴾** جادلك **﴿وحاجك﴾** في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته **﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾** بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجداله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباحثته وملاعبته، فيدعون الله ويتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكّلوا، وعلموا أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجدوا أهلاً ولا مالا وعوجلوا

بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلماذا قال تعالى **﴿إن تولوا فإن الله عليهم بالمشدين﴾** فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأخبر تعالى **﴿إن هذا﴾** الذي قصه الله على عباده هو **﴿قصص الحق﴾** وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل **﴿وما من إله إلا الله﴾** فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة **﴿وإن الله لهو العزيز﴾** الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء **﴿الحكيم﴾** الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة الشامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجادلونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل^(١).

﴿٦١٤﴾ **﴿قل يا أهل الكتاب تعلموا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقلوا شهدوا أننا مسلمون﴾** أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى **﴿تعلموا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾** أي: هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدل، ثم فسرها بقوله **﴿إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا﴾** فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبياً ولا ملكاً ولا ولياً ولا صنماً ولا وثناً ولا حيواناً ولا جماداً **﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾** بل تكون الطاعة كلها لله ولرسوله، فلا تطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فاشهدوهم

(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير يسير فقد أخرج تفسير قوله: **﴿وما من إله﴾** وقد أقيمتها على ما هي عليه.

أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلمتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحججة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضاً فإنكم إذا أسلمتمم أنتم وأمنتم فلا يعاباً الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم وخش طوبيتهم، كما قال تعالى ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآية وأيضاً فإن في ورود الشهادة على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلمن بإسلامه، إخباراً بيقينه وشكراً للنعمة ربه .

﴿٦٥ - ٦٨﴾ ﴿يا أهل الكتاب لم

تُحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَليُّ الْمُؤْمِنِينَ * لَمَّا ادَّعَى الْيَهُودُ أَنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا، وَالنَّصَارَى أَنَّهُ نَصْرَانِيٌّ، وَجَادَلُوا عَلَى ذَلِكَ، رَدَّ تَعَالَى حِجَابَهُمْ وَجَادَلْتَهُمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ، أَحَدُهَا: أَنَّ جِدَالَهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ جِدَالٌ فِي أَمْرٍ لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، فَلَا يُمْكِنُ لَهُمْ وَلَا يَسْمَحُ لَهُمْ أَنْ يَحْتَجُّوا وَيَجَادَلُوا فِي أَمْرٍ هُمْ أَجَانِبٌ عَنْهُ وَهُمْ جَادَلُوا فِي أَحْكَامِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ سِوَاهُ أَخْطَأُوا أَمْ أَصَابُوا فَلَيْسَ مَعَهُمُ الْمَحَاجَّةُ فِي شَأْنِ إِبْرَاهِيمَ، الْوَجْهَ الثَّانِي: أَنَّ الْيَهُودَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى أَحْكَامِ التَّوْرَةِ، وَالنَّصَارَى يَنْتَسِبُونَ إِلَى أَحْكَامِ الْإِنْجِيلِ، وَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ مَا أُنزِلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِبْرَاهِيمَ، فَكَيْفَ يَنْتَسِبُونَ إِبْرَاهِيمَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ قَبْلَهُمْ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِمْ، فَهَلْ هَذَا يَعْقِلُ؟! فَلِهَذَا قَالَ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: فَلِمَ عَقَلْتُمْ مَا تَقُولُونَ لَمْ تَقُولُوا ذَلِكَ، الْوَجْهَ الثَّلَاثُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَرَأ خَلِيلَهُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَهُ

حنيفاً مسلماً، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركون، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم، وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمع له فيه، وفيها أيضاً حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ، ثم قال تعالى:

﴿٦٩ - ٧٤﴾ ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ

أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون * يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون * وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يحذر تعالى عبادة المؤمنين عن مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم، كما قال تعالى ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ ومن المعلوم أن من ود شيئاً سعى بجهده على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق يقدرون عليه، ولكن من لطف الله أنه لا يبيح المكر السيء إلا بأهله فلهاذا قال تعالى ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة

رَبَّكَ إِنَّمَا نَسَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَأَتَيْتَكَ التَّوْبَةَ فَاصْبِرْ لِمَا حَقَّكَ مِنَ الْقَوْلِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّكِينُ ﴿٦٩﴾ وَقَالَ اللَّهُ يَعْزُبُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَدَائِبُ ذَلِكَ وَإِنْ مَطَّلَعْتَهُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ تَوْبَةً الْيُسْرَى كَفَرُوا إِلَى تَوْبَةِ الْقَيْمَةِ ثُمَّ إِلَى رَبِّكَ جَعَلُوكُمْ قَائِمًا يَنْتَظِرُونَ ﴿٧٠﴾ فَكَمْ كَثُرَ فِيهِ تَحْتَلِفُونَ ﴿٧١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ عَدَاؤُنَا وَمَنْ يَدْعُ إِلَى الْفِتْنِ أُولَئِكَ عَدَاؤُنَا أَجْمَعِينَ ﴿٧٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٣﴾ ذَلِكَ تَلَوَّ عَلَيْنِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالَّذِي الْحَكِيمُ ﴿٧٤﴾ إِنَّ سَأَلَ عِيسَى عِبْنُ مَرْيَمَ مَاذَا حَقَّقْتُمْ لِي رَبِّ إِنَّمَا قَالُوا بَلَاءٌ لَكُم مِّنَ رَبِّكُمْ وَكَيْفَ تَقُولُونَ ﴿٧٥﴾ فَخَرَّ عَنَّا وَخَرَّ مِنْهُ مَنَاسِكَةُ الَّذِينَ أُولُوا قُلُوبًا مَّعَانًا ﴿٧٦﴾ نَدُّوا نَسَاءَهُمْ وَنَسَاءَهُمْ وَنَسَاءَهُمْ وَنَسَاءَهُمْ وَأَنسَاءَهُمْ تَنهَّلُوا بَغْضًا لِّمَا نَسَاءَهُمْ عَلَى الْكُفْرِيِّينَ ﴿٧٧﴾

عذاب لهم، قال تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ ﴿وما يشعرون﴾ بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضررونكم شيئاً ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ أي: ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل تشهدون به ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات، فهذا نهيهم عن ضلالهم، ثم ويختم على إضلالهم الخلق، فقال ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ فوبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم يهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهما وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يمتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفة حتى يؤثره، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلموا به، ويميزوا الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون

المؤمنين بما معهم من العلم قاطعاً عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجباً للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن **﴿الهدى هدى الله﴾** فمادة الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إشارة، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه فحبت نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم والله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلماذا قال تعالى **﴿قل إن الفضل بيد الله﴾** أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان **﴿يؤتيه من يشاء﴾** فمن أتى بأسبابه **﴿والله واسع﴾** الفضل كثير الإحسان **﴿عليم﴾** بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه **﴿يختص برحمته من يشاء﴾** أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة وهي نعمة الدين ومتمماته **﴿والله ذو الفضل العظيم﴾** الذي لا يصفه الواصفون ولا ينظر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

﴿٧٥ - ٧٧﴾ **﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾** بل من أوفى بعهدته واتقى **﴿من أوفى بعهدته واتقى﴾** والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا الموضوع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهدته ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوا الله وعدم

ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين قال تعالى **﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب ليتبينه للناس ولا تكتُمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾** . ثم أخبر تعالى عن ما همت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال **﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾** أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه **﴿لعلهم يرجعون﴾** عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه عجباً بأنفسهم وظناً أن الناس سيحسنون ظنهم بهم ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن بأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون **﴿و﴾** قال بعضهم لبعض **﴿لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾** أي: لا تثقوا ولا تطمثوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا^(١) أمركم، فإنكم إذا أخبرتكم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالخاصل أنهم جعلوا عدم إخبار



(١) المراد - والله أعلم - : واكتموا أمركم عن غير من تبع دينكم.

وَأَن يَنْهَنَّهُمْ فَرِيحًا تَلْوِيَةً أَلَيْسَ لَكُمْ بِأَلِكْتَبِ لِيَحْسَبُوهُ
مِنَ الْكُتُبِ وَمَا هُمُونَ بِمَأْمُورِينَ أَلِكْتَبِ وَيَقُولُونَ هُمُونَ
عِبَادُ اللَّهِ وَمَا هُمُونَ عِبَادُ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُتُوبُ
وَهُمْ يَصْطَلِحُونَ ﴿٨٤﴾ مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكُتُوبَ
وَالْحِكْمَ وَالنَّبِيَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ
اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ يَا كُفْرًا كَثِيرًا بَلْ يُؤْتِيهِ
اللَّهُ الْوَيْبَاتَ وَيُتَوَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَأْمُرُكَ أَنْ تَتَّخِذَ مِن
أَلْفَيْكَ مَكَّةَ وَالنَّبِيِّينَ أَوْلِيَاءَ أَيَأْمُرُكَ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَ
سُورَةُ ﴿٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ
مِنَ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ آتَاكُمْ رَسُولًا مَّصِيفًا لِمَا تَمْكُتُمْ
تَوَلَّيْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عِدَّةً فَآلَ أَقْرَبُكُمْ وَلَنْ نَسْأَلَ
عَنْ ذَلِكَ عِدَّةً مِنْكُمْ قَالُوا أَفَرَأَيْنَا مَا كَانَتْ تَدْعُوا وَإِنَّا لَمَكْرُومٌ
مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴿٨٧﴾ ثُمَّ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْقَاسِيُونَ ﴿٨٨﴾ أَفَتَسْبِيحُونَ اللَّهَ بِتَوَكُّرٍ وَّلَةٍ وَأَنْتُمْ فِي
الْشَكِّ وَاللَّأِيْنِ وَالْأَرْضِ تَرْجَا وَكُفْرًا وَبِالْبَيْتِ الرَّحْمَٰنِ ﴿٨٩﴾

﴿قَالُوا الرُّسُلَا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الراس والعين **﴿لَال﴾** الله لهم: **﴿فَانشأوا﴾** على أنفسكم وعلى أممكم بذلك، قال **﴿وَالمَا مَحْكَمٌ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** فمن تولى بعد ذلك العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله **﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

﴿٨٣﴾ ﴿الْمُهْرَ دِينَ اللَّهِ﴾ يهتدون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون **﴿أي:﴾** يطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله **﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾** أي: الخلق كلهم متقادون بتسخيره مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المتقادون لعبادة ربه، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويميزهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

﴿٨٤﴾ ﴿لَلْإِنشَاءِ بَالِهِ﴾ وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وهارون والنبيون من ربه لا نضرب بهن أحد منهم ونحسن له مسلمون **﴿تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى:**

﴿٨٥﴾ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلنَ يُقْبَلْ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والنفوس بشوابه، وكل دين سواه باطل، ثم قال تعالى:

﴿٨٦﴾ ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أولئك جزأهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين **﴿خالدين فيها لا يخلف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾** هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البيّنات والبراهين القاطعات **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبعياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال **﴿أولئك جزأهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾** خالدين فيها لا يخلف عنهم العذاب ولا هم

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿إِنَّ السَّيِّئِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ لَمَّا زَادَهُمُ اللَّهُ كُفْرًا لَن لَقِبَلِ تَوْبَتِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ إن الذين كفروا وما نوا وهم كفار لمن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو اتقى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين **﴿يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾** فلما زغوا أزاغ الله قلوبهم **﴿فالسّيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجّة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿وأولئك هم الضَّالُّون﴾** وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعيذاً بالله من حالهم.

هذا الفرض العظيم .

وتأمل سر البذل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين ، مرة بإسناده إلى عموم الناس ، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين ، وهذا من فوائد البذل تقوية المعنى وتأكيد بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته .

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين ، اعتناء به وتأكيد لشأنه ، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحججه وإن لم يطلب ذلك منها ، فقال : ﴿ إن أول بيت ﴾ الخ ، فوصفه بخمس صفات : أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض ، الثاني : أنه مبارك ، والبركة كثرة الخير ودوامه ، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدم ولا أنفع للخلاق ، الثالث : أنه هدى ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة ، حتى كأنه نفس الهدى ، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية ، الخامس : الأمن الحاصل لدخله ، وفي وصفه هذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتئات بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات ، وهذا يدل على الإعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم ، والتنويه بذكره ، والتعظيم لشأنه ، والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿ وطهر بيته ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً ، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه ، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته ، فهذه المثابة للمحبين يشوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً ، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً ، فلا الوصال يشفيهم ولا العباد يسليهم ، كما قيل :

يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهلي ، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ، ولا يليق بالآية سواه ، وهو الوجوب المفهوم من قوله « على الناس » ، أي : يجب لله على الناس الحج ، فهو حق واجب لله ، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها ، ففي غاية البعد فتأمله ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية ، وهذا كما تقول : لله عليك الصلاة والزكاة والصيام .

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويجرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي ، وهو الأكثر ، ولفظ الإيجاب والكتابة والتحرير نحو ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه ، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أبدل منه أهل الاستطاعة ، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيداناً بأنه يجب الحج على أي : سبيل تيسرت ، من قوت أو مال ، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً ، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ ومن كفر ﴾ أي :

لعدم التزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه ، والله تعالى هو الغني الحميد ، ولا حاجة به إلى حج أحد ، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم « العالمين » عموماً ، ولم يقل : فإن الله غني عنه ، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار ، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه ، ثم أكد هذا المعنى بأداة « إن » الدالة على التأكيد ، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد

باب « يعجبني ضرب زيد عمراً » وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) ، فلا يصار إليه . وإذا ثبت أن « من » بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى « الناس » كأنه قيل : من استطاع منهم ، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن ، وحسنه هاهنا أمور منها : أن « من » واقعة على من لا يعقل ، كالاسم المبذل منه فارتبطت به ، ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ، ولو كانت الصلة أعم لفتح حذف الضمير العائد ، ومثال ذلك إذا قلت : رأيت إختوتك من ذهب إلى السوق منهم ، كان قبيحاً ، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : البس الشباب ما حسن وجميل ، يريد منها ، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز ، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب .

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبذل منه ، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ، وبما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول .

وأما المجرور من قوله « لله » فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون في موضع من سبيل ، كأنه نعت نكرة قدم عليها ، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل ، والثاني : أن يكون متعلقاً بسبيل ، فإن قلت : كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل ؟ قيل : السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما ، كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق ، فصلاح تعلق المجرور به ، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير ، لأنه ضمير يعود على البيت ، والبيت هو المقصود به الاعتناء ، وهم

فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ولم يترك لحائل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿لله هدي إلى صراط مستقيم﴾ موصول له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقيقاً وتلذذوا به ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمه الله عليكم إذ كنتم أعداء فألقت إيمانكم فأصبحكم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيباً إليه على الدوام، ثبت الله عند موته ووزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وتفصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها

رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴿يؤرخ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله، التي جعلها رحمة لعباده يهتدون بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتعميقها عما جعلت له، وهم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ فلماذا توعدهم هنا بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل يحيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيء، فمجازيكم عليه أشد الجزاء لما توعدهم ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطهروا لرؤية من الدين أتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وذلك لحسدكم وبغيهم عليكم، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لشبث المؤمنين على إيمانهم، وعدم تنزيلهم عن إيمانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تعلم أن الله يبغض الكافرين﴾ رسول الله ﴿أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجها والجزم بمقتضاها وعدم الشك

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداي وألثم منه الركن أطلب بردما بقلبي من شوق ومن هيمان فوالله ما ازداد إلا صبابه ولا القلب إلا كثرة الخفقان فياجنة المأوى ويأغاية المنى وبما منيتي من دون كل أمان أبت غلبات الشوق إلا تقربا إليك فعالي بالبعاد يبدان وما كان صدى عنك صدملالة ربي شاهد من مقلتي ولسان دعوت اصطباري عنك بعدك واليكا فلبى اليكا والصبر عنك عصاني وقد زعموا أن المحب إذا نأى سبيلهُ هواه بعد طول زمان ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا دواء الهوى في الناس كل زمان بلى إنه يبلى والهوى على حاله^(١) لم يبسه اللوان^(٢) وهذا محب قاده الشوق والهوى بغير زمام قائد وعنان أتاك على بعد المزار ولو نونت مطيته جاءت به القدمان انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

﴿٩٨ - ١٠١﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بأيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾ قل يا أهل الكتاب لم تصدقوا عن سبيل الله من آمن تطهروا عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطهروا لرؤية من الدين أتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وكيف تكفرون وأنتم تعلم أن الله يبغض الكافرين

(١) في الهامش كتب: أي الهوى.

(٢) في الهامش: (لعل صواب هذا البيت قوله:

بلى إنه يبلى المحب وإنه

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي:

بلى إنه يبلى التصبر والهوى

(٣) في الأصل: بأعمالهم ولعل الصواب ما أثبت.

على حاله لم يبسه اللوان

على حاله لم يبسه اللوان



الناجون من المهروب، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾** ومن جاءهم البيئات **﴿من بعد ما جاءهم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾**

﴿١٠٦ - ١٠٨﴾ **﴿يوم تبيض**

وجوه وتسود وجوه فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتهم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين * يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال: **﴿يوم تبيض وجوهه﴾** وهي وجوه أهل السعادة واخير، أهل الائتلاف والاعتصام بعجل الله **﴿وتسود وجوهه﴾** وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء أسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والقضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة

وفينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيئات وأولئك لهم عذاب عظيم * أي: وليكن منكم أيها المؤمنون الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله **﴿أمة﴾** أي: جماعة **﴿يدعون إلى الخير﴾** وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويسعد من سخطه **﴿ويأمرون بالمعروف﴾** وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه **﴿وينهون عن المنكر﴾** وهو ما عرف بالشرع والعقل فيحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكشف ذلك من شوائب الموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله **﴿ولتكن منكم أمة﴾** الخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكابة الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: **﴿وأولئك هم المفلحون﴾** الفائزون بالمطلوب،

فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال:

﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والافتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وأمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تآلف قلوبهم وموالاته بعضهم لبعض، ولهذا قال: **﴿فآلف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار﴾** أي: قد استحققتهم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها **﴿فأنقذكم منها﴾** بما منَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ **﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾** أي: بوضحها ويفسرهما، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال **﴿لعلكم تهتدون﴾** بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرياً له وحباً، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمته الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ **﴿ولتكن منكم**

أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف



على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾. نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحدًا شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

﴿١٠٩﴾ ﴿والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي: هو المالك لما في السموات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها.

﴿١١٠ - ١١٢﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحيل من الله وحيل من الناس وبأؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ * يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخيراً في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتثلت أمر ربه واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ولو آمن أهل الكتاب

لكان خيراً لهم﴾. وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المعادون لأوليائه الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبدانهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار فراراً ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمنون ﴿إلا بحيل﴾ أي: عهد ﴿من الله وحيل من الناس﴾. فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى وقد ﴿بأؤوا﴾ مع ذلك ﴿بغضب من الله﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ المنوجة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً واعتناداً﴾ و﴿يقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشرف مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والحماية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿١١٣ - ١١٥﴾ ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾. لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

والسرور والنعيم والخبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: ﴿ولقاهم نصره وسروراً﴾ نصرته في وجوههم وسروراً في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على وجه التوبيخ والتفريع: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: كيف أترتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾. فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ فيهنؤون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيم السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿تلك آيات الله نتلوها﴾ أي: نقصها ﴿عليك بالحق﴾ لأن أوامره ونواهيها مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل

بين هاهنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخبر أنهم لا يستورون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى منهم ﴿أمة قائمة﴾ أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما أزمها الله به من الأمور، ومن ذلك قيامها بالصلاة ﴿يهدلون أيماناً﴾ الله أناء الطبل وهمسهمسجون ﴿وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإشارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: كإيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقرب به إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿وبما يؤمنون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولو أزمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿وأنهم يسارعون في الجهاد﴾ أي: يبادرون إليها فيتنهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بقوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿من الصالحين﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمدهم بغيراته وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿من خير﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿لن يفسدوا﴾ أي: لن يجرموا ويفوتوا أجره، بل يشبههم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلماذا قال ﴿والله عليهم بالمتقين﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ **﴿إن الذين كفروا لن لغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** مثل ما ينطقون في هذه الحياة الدنيا كما مثل ربح فيها صر أصحاب حرق لوم ظلموا أنفسهم فإهلكهم وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴿يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زاداً لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ثم ضرب مثلاً ما يتفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد محرق، فأهلكته زرعه، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسئفون﴾ ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴿وما ظلمهم الله﴾ بإبطال أعمالهم ﴿ولكن﴾ كانوا ﴿الفسهم يظلمون﴾ حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

﴿١١٨ - ١٢٠﴾ **﴿ما أبدا المتدين أمذوا لا تغفوا وبطانه من دولكم لا بالولكم حجبالاً وذوا ما عنتم قد بدت البغضماء من ألوهم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم آيات إن كنتم تعلمون﴾** ها أتم أولاء محبونهم

بأن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿١١٦﴾ مثل ما ينطقون في هذه الحياة الدنيا كما مثل ربح فيها صر أصحاب حرق لوم ظلموا أنفسهم فإهلكهم وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴿١١٧﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زاداً لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ولا محبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم فاقوا أماناً وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قبل سؤلوا يهبطكم إن الله عليهم بذات الصدور ﴿إن فسسكم حسنة نسؤهم وإن تصدقكم حسنة يفرحوا بها وإن تصبروا ونطقوا لا يضركم جهدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهرهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ مما يسمع منهم فلماذا ﴿لا بالولكم حجبالاً﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿لعلكم تعلمون﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلى بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلع من باطنه على شيء ولو تعلق له وأقسم أنه من أوليائه قال الله مهيجاً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبيناً شدة عداوتهم ﴿ها أنتم



يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض .

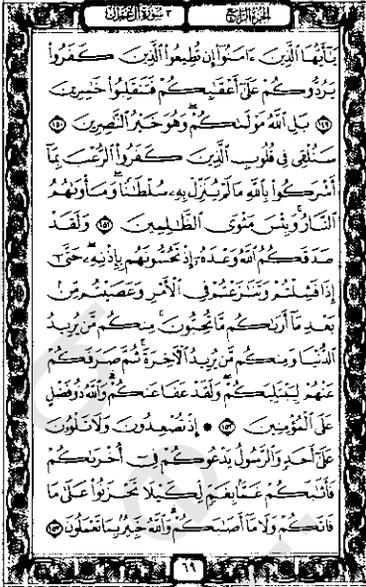
﴿١٢٧﴾ ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾ يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين : إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أي : جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمة مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهب لبعض قوتهم، الأمر الثاني أن يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويبدلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل لهم .

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ والله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب

فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتسروا على معسكرهم ستأتي - إن شاء الله - القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشراً لهم بالنصر ﴿ألن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا﴾ أي : من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أي : معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط : الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله : ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ ﴿وما جعله الله﴾ أي : إمداده لكم بالملائكة ﴿إلا بشرى﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليبين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال ﴿عند الله العزيز﴾ فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مديرون تحت تدبيره وقهره ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى : ﴿ذلك ولو

﴿والله وليهما﴾ أي : بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه العصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى : ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ ثم قال ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الشقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى :

﴿١٢٣ - ١٢٦﴾ ﴿ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعددهم مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وقرسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة



حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحثقروا من المعروف شيئاً ولو قل .

﴿ **وَالْبِطْأَةُ سَجْمٌ مِّنَ الْغَيْظِ** ﴾ أي : إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم .

﴿ **وَالْعَالِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السماح عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتحلى عن الأخلاق الرذيلة، ومن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى : ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ .

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال [تعالى] : ﴿ **وَاللَّهُ يَهَبُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ . والإحسان نوعان : الإحسان في عبادة الخالق . [والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة

ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له : إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك، اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد - بذلك - ما في ذمته أضعافاً مضاعفة، من غير نفع وانتفاع .

ففي قوله : ﴿ **أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً** ﴾ تنبيه على شدة شناعته بكثرتة، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم .

وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فالزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه، لأن تركه من موجبات التقوى .

والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ . واتقوا النار التي أعدت للمتكافرين . بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها - وخصوصاً المعاصي الكبار - تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار، ويبقى من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة، ولهذا قال : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ** ﴾ . بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ** ﴾ .

فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتَسِبْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ الآيات .

ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها، ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ** ﴾ أي : في

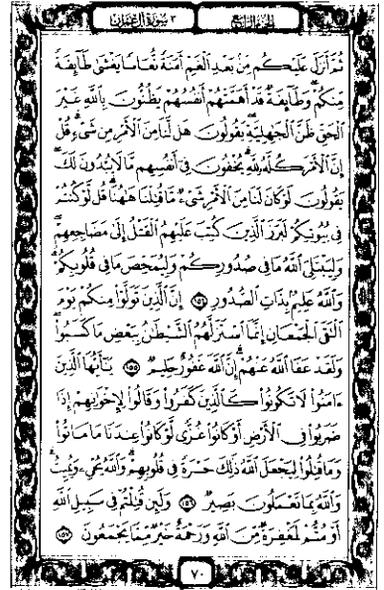
في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به، ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه، وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي، وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، وأمر الله [بها] وحث على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حث على تركها .

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبَكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يَمْدَدْكُمْ بِرَبِّكُمْ** ﴾ الآيات .

فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات : مرة مطلقة وهي قوله :

﴿ **أَعْدَتِ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ ومرتين مفيدتين، فقال : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ . ﴿ **وَاتَّقُوا النَّارَ** ﴾ فقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتنال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي ؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو



الخالق (١)

فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والديني إليهم، ودفع الشر الديني والديني عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل السدي وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناباتهم وذنوبهم، فقال: **«والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم»** أي: صدر منهم أعمال [سيئة] كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما تواعد به العصاة ووعده بالثقتين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فهذا

قال: **«ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون»**

«أولئك» الموصوفون بتلك الصفات **«جزأهم مفصراً من ربهم»** تزيل عنهم كل محذور، **«وجنات تجري من تحتها الأنهار»** فيها من النعيم القيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، **«خالدين فيها»** لا يحولون عنها، ولا يبغون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم، **«ونعم أجر العاملين»** عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً ف «عند الصباح يحمد القوم السري»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: **«سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله»** فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسوله، وهنا قال: **«أعدت للمتقين»**. ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

«١٣٧ - ١٣٨» ثم قال تعالى: **«قد دخلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين»** هذا بيان للناس وهدى ومرعظة للمتكئين

وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة «أحد» يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاوله، حتى جعل الله العاقبة

للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وأخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسوله وأتباعهم.

«فسيروا في الأرض» بأبدانكم وقلوبكم **«فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين»** فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزمهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم، فأليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل!!!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليبلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: **«هذا بيان للناس»** أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذابين.

«وهدى ومرعظة للمتقين» لأنهم هم المتفقون بالآيات فتهديمهم إلى سبيل الرشاد، وتعظيمهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم، تقوم [به] عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.

ويحتمل أن الإشارة في قوله: **«هذا بيان للناس»** للقرآن العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموماً، وهدى ومرعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

«١٣٩ - ١٤٣» **«ولا يهتسبوا ولا يحزنوا وأتتكم الساعات فأنقذوا أنفسكم من قبلهم»** إن همسكم قرع فقد مس القوم قرع مثله وتلك الأيام تداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين **«وليعلم الله الذين آمنوا ويستحق الكافرين»** أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين **«ولقد كنتم قوم موت من قبل أن يخلق الله رءسكم»** وأنتم لتظنون أن يقول تعالى مشجعاً

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) زيادة من هامش ب.

ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنون ويودون حصوله، فقال: **﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾** وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله [تعالى] لهم: **﴿فقد رأيتهم﴾** أي: رأيت ما غنيتم بأعينكم **﴿وأنتم تنظرون﴾** فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيته، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿١٤٤ - ١٤٥﴾ ثم قال تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾**

يقول تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾** بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: **﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾** إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما ويخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثال أمر ربه، فقال: **﴿وسيجزي الله**

من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمة عباده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والتعظيم القيم، **﴿والله لا يحب الظالمين﴾** الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضاً بدم المنافقين، وأنهم مغضوبون لله، ولهذا ثبّطهم عن القتال في سبيله.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين﴾

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم - ويمسحون - من المؤمن من المنافق، ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك، ليمحى الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحقتهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾** هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا تخضرب بالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكارة في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك التعظيم إلا بترك التعظيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تنقلب عند أرباب الصائر منحاً يسرون بها، ولا يباليون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لعباده المؤمنين، ومقوياً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: **﴿ولا تمنوا﴾** أي: ولا تمنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تمنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتكم هذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المثيق ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال [تعالى]: **﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾**.

ثم سألهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبيّن الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾** فأنتم وإياهم قد تساوتكم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: **﴿إن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾**.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هذا أيضاً من الحكم أنه يتلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسرء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله

الشاكرين والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال . وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يززعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه ، فقد رتب ولو عظم ، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه ، إذا فقد أحدهم قام به غيره ، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ، بحسب الإمكان ، لا يكون لهم قصد في رتبته دون رتبته ، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم . وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ ، لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجالها بإذن الله وقدره وقضائه ، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب ، ومن أراد بقاءه ، فلو أتى^(١) من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله ، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى : **«إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»** .

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقته به إراداتهم ، فقال : **«ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها»** .

قال الله تعالى : **«كُلًّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا»** * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً .

«ومستجزي الشاكرين» ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرتهم وعظمتهم ، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر ، قلة وكثرة وحسناً .

﴿١٤٦ - ١٤٨﴾ «وكأين من نبي قاتل معه ربون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين» هذا تسلية للمؤمنين ، وحث على الاقتداء بهم ، والفعل كفعالهم ، وأن هذا أمر قد كان متقدماً ، لم تنزل سنة الله جارية بذلك ، فقال : **«وكأين من نبي»** أي : وكم من نبي **«قاتل معه ربون كثير»** أي : جماعات كثيرون من أتباعهم ، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة ، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك .

﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾ أي : ما ضعفت قلوبهم ، ولا وهنت أبدانهم ، ولا استكانوا ، أي : ذلوا عدوهم ، بل صبروا وثبتوا ، وشجعوا أنفسهم ، ولهذا قال : **«والله يحب الصابرين»** .

ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم ، فقال : **«وما كان قولهم»** أي : في تلك المواطن الصعبة **«إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا»** والإسراف : هو مجاوزة الحد إلى ما حرم ، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان ، وأن التخلي منها من أسباب النصر ، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلموا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر ، بل اعتمدوا على الله ، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين ، وأن ينصرهم عليهم ، فجمعوا بين الصبر وترك ضده ، والتوبة والاستغفار ، والاستنصار بربهم ، لا جرم أن الله نصرهم ، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : **«فاتاهم الله ثواب الدنيا»** من النصر والظفر

والغنيمة ، وهو الفوز برضا ربهم ، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكذات ، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال ، فجازاهم بأحسن الجزاء ، ولهذا قال : **«والله يحب المحسنين»** في عبادة الخالق ومعاملة الخلق ، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء ، كفعل هؤلاء الموصوفين^(٢) .

﴿١٤٩ - ١٥١﴾ ثم قال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وما أوهام النار وبئس مثنوى الظالمين﴾** .

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين ، فإنهم إن أطاعوهم لم يربدوا لهم إلا الشر ، وهم [قصدهم]^(٣) ردهم إلى الكفر الذي عاقبه الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم ، ففيه إخبار لهم بذلك ، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلفظه ، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذ حده ولياً وناصر من دون كل أحد ، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب ، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم ، وقالوا : كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمتناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، فانصرفوا خائنين ، ولا شك أن هذا من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن يقطع

(٣) زيادة من هامش ب .

(٢) في ب : المؤمنين .

(١) في ب : فلو وقع .

طرفاً من الذين كفروا، أو يكرهتهم
 فيقبلوا خائبين، وهذا من الثاني.

ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء
 الرعب في قلوب الكافرين، فقال:
**﴿بِعِصَا أَشْرِكُوا بِاللهِ صَالِحاً يَمْشُونَ فِيهَا
 سُلْطَاناً﴾** أي: ذلك بسبب ما اتخذوا
 من دونه من الأنداد والأصنام، التي
 اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم
 الفاسدة، من غير حجة ولا برهان،
 وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن،
 فمن ثم كان المشرك مرعوباً من
 المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق،
 وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق،
 هذا حاله في الدنيا، وأما في الآخرة
 فأشد وأعظم، ولهذا قال: **﴿وَأولئهم
 النار﴾** أي: مستقرهم الذي يأرون إليه
 وليس لهم عنها خروج، **﴿وَأولئهم
 الظالمين﴾** بسبب ظلمهم وعدوانهم
 صارت النار مثواهم.

**﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَقَدْ صدقكم الله وعده
 إذ تحسبونهم بإذنه حتى إذا فشلتم
 وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما
 أراكم ما يحبون منكم من يريد الآخر﴾** لم
 يرضل عمل المؤمنين **﴿أي: ﴿وَلَقَدْ
 صدقكم الله وعده﴾** بالنصر، فنصركم
 عليهم، حتى ولوكم أكتافهم، وطققتم
 فيهم قتلاً، حتى صرتم سبباً
 لأنفسكم، وعوناً لأعدائكم عليكم،
 فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف
 والخور **﴿وتنازعتم في الأمر﴾** الذي فيه
 ترك أمر الله بالاختلاف وعدم
 الاختلاف، فاختلفتم، فمن قائل نقيم
 في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي **﴿صلى
 ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم
 العدو، ولم يبق محذور، فعصيتم
 الرسول، وتركتم أمره من بعد ما
 أراكم الله ما تحبون وهو اتخاذ
 أعدائكم؛ لأن الواجب على من
 أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من
 غيره.**

فالواجب في هذه الحال خصوصاً،
 وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله

﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين
 أوجب لهم ذلك ما أوجب، **﴿ومنكم
 من يريد الآخرة﴾** وهم الذين لزموا أمر
 رسول الله **﴿صلى﴾** وثبتوا حيث أمروا.

﴿لم يرضلكنم عنهم﴾ أي: بعدما
 وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله
 وجوهكم عنهم، فصار الوجه
 لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً،
 ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من
 العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه
 المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال:

**﴿وَلَقَدْ علما عنكم الله ذو فضل على
 المؤمنين﴾** أي: ذو فضل عظيم عليهم،
 حيث منَّ عليهم بالإسلام، وهداهم
 لشراعتهم، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم
 على مصيبتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر
 عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً
 لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا
 جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم
 ضراء فصبروا، جازاهم جزاء
 الصابرين.

**﴿١٥٣﴾ ١٥٤﴾ ﴿إذ تصعدون
 ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم
 في أخراكم فأثابكم غمماً بغم لعلنا
 نجزيهم ما كانوا على ما أصابكم
 والله مخبر بما تعملون﴾** لم أنزل
 عليكم من بعد الغم أمناً ناعساً يغشى
 طائفة منكم وطائفة قد أهنتهم أنفسهم
 يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية
 يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل
 إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما
 لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من
 الأمر شيء ما قلنا هاهنا قل لو كنتم في
 يهونكم لبرز الدهن كتب عليهم القتل
 إلى مضاجعهم وليبني الله ما في
 صدوركم وليمحض ما في قلوبكم
 والله عليهم بدات الصدور **﴿يذكرهم
 تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن
 القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال:
 ﴿إذ تصعدون﴾** أي: تجذون في الهرب
﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي: لا يلوي
 أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه،
 بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن

القتال.



القتال.

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير،
 إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء،
 ويباشر الهيجاء، بل **﴿الرسول
 يدعوكم في أخراكم﴾** أي: مما يلي
 القوم يقول: «إلى عباد الله»، فلم
 تلتفتوا إليه، ولا عرجمت عليه، فالفرار
 نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول
 الموجبة لتقديمه على النفس، أعظم لوماً
 بتخلفكم عنها، **﴿فأثابكم﴾** أي:
 جازاكم على فعلكم **﴿غمماً بغم﴾** أي:
 غمماً يتبع غمماً، غمٌّ بفوات النصر
 وفوات الغنمة، وغم بانهزامكم، وغم
 أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن
 عمداً **﴿صلى﴾** قد قتل.

ولكن الله - بلطفه وحسن نظره
 لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور
 لعبادة المؤمنين خيراً لهم، فقال:
﴿لعلنا نجزيهم ما كانوا على ما أصابكم﴾ من
 النصر والظفر، **﴿ولا ما أصابكم﴾** من
 الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققت أن
 الرسول **﴿صلى﴾** لم يقتل هانت عليكم تلك
 المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي
 عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن
 البلايا والمحن من الأسرار والحكم،
 وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته
 بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم،
 ولهذا قال: **﴿والله خبير بما
 تعملون﴾**

ويحتمل أن معنى قوله: **﴿لعلنا**

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة .

قال الله رداً عليهم: ﴿وَاللَّهُ يَجْعَلُ بَعْدَ عَذَابِكُمْ إِحْسَانًا﴾ أي: هو المنفرد^(١) بذلك، فلا يغني حذر عن قدر .

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم .

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلأ بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله!!

﴿١٥٩﴾ ﴿فَبِمَارِحَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن أنت^(٢) لهم جانبك، وخففت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك .

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ أي: سيء الخلق
﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: قاسيه،
﴿لَانْتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء .

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،

فكيف بغيره!؟

اليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله .

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان .

﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدينية ما لا يمكن حصره: منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله .

ومنها: أن فيها تسميحاً لخطأهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث - اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد^(٣) عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة .

ومنها: أن في الاستشارة تنوير الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول .

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطيء في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً، وأعزهم علماً، وأفضلهم رأياً -: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ فكيف بغيره!؟



ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فتوكل على الله﴾ أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه، اللاجئين إليه .

﴿١٦٠﴾ ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فلا غالب لكم﴾ فلو اجتمع عليهم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعُدُد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه .

﴿وإن يخذلكم﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟﴾ فلا بد أن تتخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق .

وفي^(٤) ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تقديم المعمول يؤذن بالحصص، أي: على الله

(٤) في ب: وقد .

(٣) في ب: يستبد .

(١) في ب: المنفرد .

(٢) في الأصل: (لنت).

ذلك عقول العالمين .

﴿ ١٦٥ - ١٦٨ ﴾ **﴿ أولما أصابكم مصيبة ﴾**

مصيبة قد أصبتم مثلها فلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير * وما أصابكم يوم التقى الجمعان ليجازن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو تعلم لقلنا لا تبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس لهم قلوبهم والله أعلمهم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهم واعدوا لو أطاعونا ما قلنا لقلنا لعل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين * هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد»، وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم **﴿ قد أصبتم ﴾** من المشركين **﴿ مثلها ﴾** يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسلمت سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار.

﴿ فليعلم أنى هذا ﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمتنا؟ **﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾** حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية .

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم . **﴿ ذلك ولو يشاء الله، لا انتصر منهم، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾** .

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة، أنه ياذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه. والأمر القدري - إذا نفذ، لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره حكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق، الذين لما أمروا

بالمقاتل، **﴿ وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله ﴾** أي: ذباً عن دين الله، وحماية له وطلباً لرضاة الله، **﴿ أو ادفعوا ﴾** عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن **﴿ قالوا لو تعلم لقلنا لا تبعناكم ﴾** أي: لو تعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لا تبعناكم، وهم كذبة في هذا. قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين، قد ملئوا من الخنق والغیظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر، يروج على المؤمنين، قال تعالى: **﴿ هم للكفر يومئذ ﴾** أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين **﴿ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس لهم قلوبهم ﴾** وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم .

ومنه قولهم: **﴿ لو تعلم لقلنا لا تبعناكم ﴾** فإنهم قد علموا وقوع القتال .

ويستدل بهذه الآية على قاعدة «ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين، للعجز عن أعلاهما»؛ [لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان] **﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾** فيبيده لعبادة المؤمنين، ويعاقبهم عليه .

ثم قال تعالى: **﴿ الذين قالوا لإخوانهم واعدوا لو أطاعونا ما قلنا ﴾** أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله

وإذ أعذ الله بسبب الويل أوفوا العكس كتب لنتيقتنا بناس
وإذ تكشونه بسبب ذوقه وآله ظهورهم وأشرقتوا به فمنا
قللاً فليس ما يشدركم * لا تحسبوا الذين يترجون
بنا أنى ويخبرون أن يحمدوا بما أرتفعوا ولا تحسبهم
يكتفون الكتاب وهم عذاب آية * وقد ملك
السنكون والآمن والله على كل شيء قدير * إن
وعلى السنكون والآمن وأخلف الليل والنهار لا يثبت
أزول الألب * الذين يذكرون الله ويكفون
وعلى جنهم ويذكرون في على السنكون والآمن
ربنا ما خلقنا هذا ليلاً مستحكة فصا عذاب النار *
ربنا الله من سخط الشارقة أقرنته وما اللطيليين
أفسار * ربنا إننا سمعنا من آياتي الذي لا يبين أن
ما يؤمرنا به ففاننا آياتنا فغيرنا ذواتنا ركة فربنا
سنتنا وقوتنا مع الأكرار * ربنا وإننا ما وجدنا
على رسلك ولا نخرنا يوم القيمة بلنا لأخلف ليلنا *

وقدره، قال الله ردا عليهم: **﴿ قل فادروا ﴾** أي: ادفعوا **﴿ من أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾** إنهم لو أطاعوك ما قتلوا، لا تقدرتون على ذلك ولا تستطيعونه .

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى .

﴿ ١٦٩ - ١٧١ ﴾ **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾** فرحون بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * هذه الآيات الكريمة^(١) فيها فضيلة^(٢) الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتالهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، فقال:

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله ﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله **﴿ أمواتاً ﴾** أي: لا يخطر ببالك وحسابك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها،

(٣) في ب: فضل .

(٢) في ب: الكريمت .

(١) زيادة من هامش: ب .

به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وإن الله لا يهضم أجر المؤمنين﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم. وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتشير بعضهم بعضاً.

١٧٢ - ١٧٥ ﴿المستسلمين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم وانفروا أجر عظيم﴾ الذين قال لهم الضناس إن الناس لند جمعوا لكم فاحضروهم لئلا هم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يحسبهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخالفون إن كنتم مؤمنين ﴿لما رجع النبي ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «جراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إن الضناس لند جمعوا لكم﴾ وهووا باستئصالكم، تخوفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالا عليه.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعمل قدر إيمان العبد يكون خوفة من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

١٧٦ - ١٧٧ ﴿ولا يحزنوك الذين يمشرون﴾ الذين يمشرون في الكفر إنهم لن يضرروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم ﴿إن الذين آمنوا والكفرة بالإنسان لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿ولا يحزنوك الذين يمشرون في الكفر﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه ﴿إنهم لن يضرروا الله شيئاً﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تباله ولا تحفل بهم، إنما يضررون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له

به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وإن الله لا يهضم أجر المؤمنين﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم. وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتشير بعضهم بعضاً.

١٧٢ - ١٧٥ ﴿المستسلمين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم وانفروا أجر عظيم﴾ الذين قال لهم الضناس إن الناس لند جمعوا لكم فاحضروهم لئلا هم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يحسبهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخالفون إن كنتم مؤمنين ﴿لما رجع النبي ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «جراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إن الضناس لند جمعوا لكم﴾ وهووا باستئصالكم، تخوفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالا عليه.

﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي: كافينا كل ما أهدانا ﴿ونعم الوكيل﴾ المقوض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم ﴿فانقلبوا﴾ أي: رجعوا ﴿بنعمة من الله وفضل لم يحسبهم سوء﴾ وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،



الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أحياء عند ربهم﴾ في دار كرامته.

ولفظ: ﴿عند ربهم﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يرزقون﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكشورته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم ﴿النعيم والسرور، وجعلوا﴾ يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴿أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿الأخوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ أي: ينعم بعضهم بعضاً، بأعظم مهناً

(١) في النسختين: فتم له.

(٢) في النسختين: الخائفين له، ولعل الأقرب ما أثبت.